المحاضرة السابعة: الحكاية الخرافية

- **الحد المفهومي:**

يقال إنّ لفظة "خرافة" تعود إلى ما أورده ابن منظور في لسان العرب، حين أورد كلاما لابن الكلبي مفاده أنّ "خرافة" رجل من بني عذرة اختطفته الجنّ، وأخذته إلى عالَمها (العالم الآخر) وحين عاد راح يروي للناس ما شاهده في العالم الآخر من أحداث عجيبة وعوالم غريبة، فصار الناس ينسبون كلّ حديث يتضمّن شيئا من العجائبية والخوارق والعالم الآخر إلى حديث خرافة. من هنا فإنّ لفظ خرافة يطلق في العرف الشعبيّ على: الهذيان والخيال والتهويم... فيُقال خرّف، والتخريف...

أمّا من الناحية الاصطلاحية، فيُقصد بالحكاية الخرافية conte merveilleux أنها: شكل من أشكال القصص الشعبي، تتميّز ببساطة لغتها، تتأرجح أحداثها بين عالمين: العالم المعلوم والعالم المجهول، ولذلك تتنوع شخصياتها بين الإنسان والحيوان والغيلان والجنّ... وتنتهي عادة بمغزى يشكّل فلسفة الحكاية الخرافية؛ حيث إنّ الغرض من سرد أحداث الحكاية الخرافية لا يكون بدافع المتعة وتزجية الوقت فحسب، بل، فضلا عن ذلك، بغرض تمرير رسالة، واختزال تجربة إنسانية معيشة، واستخلاص حِكَمٍ وعِبرٍ تكون بمثابة زادٍ للمتلقي في قادم أيامه.

- **طقوس أداء الحكاية الخرافية:**

تؤدّى الحكاية الخرافية في طقوس خاصة، ونقصد بالطقوس هنا الظروف الزمانية، والمكانية، والتداولية، والأدائية.

عادة ما تتمّ رواية الحكاية الخرافية من قبل "النساء" (الراوي الهاوي)، حيث يجتمع أفراد الأسرة من أبناء وأحفاد حول الأمّ أو الجدّة أو الأخت الكبرى، حول الموقد ليلا (أي خاصة في الشتاء، حيث يكون الليل طويلا) فتروي لهم أحداث حكاية خرافية ما، بأسلوب ماتع وشائق ومسترسل يشدّ انتباه المستمعين. ويفتتح الراوي حكاية الخرافية بعبارات افتتاحية تهيّئ

المتلقي للانتقال إلى أجواء العالم المجهول الممزوج بصفات العالم المعلوم، من تلك العبارات:

- كان يا ما كان، في قديم الزمان، سالف العصر والأوان...
- يا سادة ويا مادة، واجعلنا من أهل السعادة، نلقاو زوج تفاحات نقسمهم في اثنين، ما يتحرم كان الشيطان لعنه الله.
- خارفْتك امخارفة الشيطان على الاَوطان...

وتنتهي الخرافة بصيغ اختتامية تعيد المتلقي إلى أجواء العالم الواقعي، مثل:

- حكايتنا شدّت الواد الواد .. وأنا ولّيت مع الجواد
- خرّافتنا دخلت الغابة، والعام الجاي تجينا صابة...

- **شخوص الحكاية الخرافية:**

كنّا أشرنا إلى أنّ الحكاية الخرافية تنقل لنا أحداثا تجري في عالمين: العالم المعلوم والعالم المجهول، ومن الطبيعي أن تتنوع شخوص الحكاية بتنوّع عوالمها؛ فهناك شخوص تنتمي إلى العالم المعلوم، وأخرى تنتمي إلى العالم المجهول:

شخوص العالم المعلوم:

- الإنسان (رجال، نساء، صغار، كبار...)
- الحيوان (المعروفة الأليفة والمتوحشة)

شخوص العالم المجهول:

- الأرواح والعفاريت
- الجنّ
- الأغوال
- الشياطين
- كائنات غريبة (كأن تكون حيوانات غريبة، مثل الطامة "الأفعى ذات السبعة رؤوس".

- **خصائص وفنيات الحكاية الخرافية:**

حاول بعض الدارسين تحديد خصائص الحكاية الخرافية فيما يأتي:

- عدم تقيّد الحكاية الخرافية بزمان أو مكان محدّد، ذلك أن القاص يتناول الموضوع مباشرة دون مقدمات أو ممهدات. ولذلك فهي صالحة لكل زمان ومكان.
- الأبطال في الحكاية الخرافية يولدون مع ولادة الحدث، فهم أبطال جاهزون، تعارف الناس على بطولاتهم وآمنوا بها؛ ولذلك لا يُسأل القاص عن نشأة البطل زمراحل نموه أو نسبه...
- يطغى أسلوب المبالغة على نصوصها وأحداثها، وكل ما يقال أو يظهر فيها من خوارق لا يُعدّ كذباً في الثقافة العامة، بل إنّ عموم الناس يعتقدون في حقيقة ما يروى.
- يلجأ القاص إلى العنصر الدرامي لتطوير الحدث وزيادة تفاقمه، مما يجعل المستمعين في تلهف لمعرفة الحلّ.
- ينتهي الصراع بانتصار البطل الذي هو في النهاية يرمز للاتجاه الفلسفي لدى المجتمع، وهو انتصار الخير على الشرّ، فالبطل يظهر بصورة المنقذ الذي ينشر الأمن والطمأنينة التي هي مطمح المجتمع، وتتلاشى كل الشخوص الأخرى التي كانت عناصر أساسية في خلق العقدة.
- الحكاية الشعبية لا نجدها تغرق في الوصف وتسترسل فيه إلى درجة الإملال، بل إنّ الوصف دقيق ومحدد يستوفي الحدث دون حشو.
- الحكاية الشعبية لا ترسم الشخصيات رسما دقيقا، ولا ترغب في تحديد معالمها لتظلّ شخصية كل زمان ومكان، إنها شخصية إنسانية مطلقة.
- الحكاية الخرافية لا تعرف التحليل لأنّ التحليل يؤدي إلى: فقد الراوي لخيوط الحكاية، ومن ثم ينسى الأحداث نتيجة التحليل. كما أنّ التحليل يحكمه المنطق واستعمال العقل، وهو ما ينافي الخيال الذي تستهدفه الحكاية بالدرجة الأولى. كما أن التحليل يفقد الحكاية جانبها الجمالي وانسيابية أسلوبها.

- الشخصيات ليست لها أسماء إلاّ نادرا، والغالب ما تشيع فيها أسماء الجنس والصفات، مثل "مرت الحطاب"، الأمير، السلطان، الستوت، المدبّر...